

## البلاغة العربية تعلماً وتعليماً من النص إلى المعيار "المعتزلة نموذجاً"

عمار بـمـدـاش  
جامعة 8 ماي 45 قالة- الجزائر

### المُلخَص:

موضوع هذا المقال تعليم البلاغة عند العرب القدماء- المعتزلة خاصة- وهو مفهوم حاولنا أن نؤسس له في ضوء ما وصلنا من ثراء معرفي، وزخم إنتاجي يدلُّ بوضوح على ما كان عليه أسلافنا من تمثُّل للمفاهيم النَّظرية الضَّابطة للعملية التَّعليمية، وما واكبها من إنتاج إبداعي ظلَّ مشكاة يستمدُّ منها المتأخرون شرعيتهم. وقد ترصد- املقال- آراء علماء البلاغة- من المعتزلة- في عصورها الزَّاهرة، وطرائق تعاملهم مع مشكلات، وعوائق تعليمية، أفرزتها ظروف طرأت عليهم، ارتبطت بمعيشتهم، كتعليم غير العرب، أو محاجَّتهم، وما صحبه من تجديد في وسائل الخطاب التعليمي، وتنويعها.

الكلمات المفتاحية: البلاغة- التعليم- التعلّم- المعتزلة- التراث العربي.

### La rhétorique arabe : enseignement et apprentissage : du texte à la norme ( mu'tazilistes exemplaire)

#### Résumé :

Le sujet de cet article est l'art d'enseigner la rhétorique chez les anciens arabes, plus précisément les mu'tazilistes, c'est un concept que nous essayons de l'établir à la lumière de ce qui nous est arrivé de la richesse de la connaissance, et de la dynamique de production qui montre clairement ce que nos ancêtres représentaient à travers les concepts théoriques pour le processus éducatif et ce qui l'accompagnait du production créative qui représente une torche de légitimité chez les autres. Cet article traite les avis des chercheurs de la rhétorique – des mu'tazilistes- dans ses moments de force, ses méthodes de traiter les problèmes, et les lacunes d'apprentissage causés par les circonstances quotidiennes comme l'apprentissage des non arabes, et faire des débats avec eux, c'est ce qui a donné naissance à l'innovation dans les moyens du discours et sa diversité.

**Mots clés:** Rhétorique, enseignement, apprentissage, les mu'tazilistes, patrimoine arabe.

## From the Text to the Examplar: The Teaching and Learning of Arabic Rhetoric "The case of Rationalists"

### Abstract:

This article deals with the art of teaching rhetoric among the ancient Arabs - the rationalists in particular - a concept that we have tried to establish in the light of the broad knowledge passed to us, and the productive momentum that clearly indicates what our ancestors represented for the theoretical concepts of the educational process, from which the latter scholars draw their legitimacy.

The article examines the views of the scholars of rhetoric - from the rationalists - in their glorious era, and the ways in which they dealt with problems and educational obstacles created by circumstances related to their lives, such as non-Arab education or their needs.

**Keywords:** rhetoric - teaching - learning - rationalists - Arab heritage.

### - توطئة:

لعلّ أبرز من حاول صياغة نظرية واضحة المعالم حول عملية التعلّم هو (الغزالي أبو حامد)<sup>1</sup>، الذي عرفه تارة بأنّه: "اكتساب العلوم واجتلابها في القلب" وعرفه تارة أخرى بأنّه: "إعادة العلم الأصلي للنفس" وإن كان (الغزالي) من خلال هذين التعريفين لا يكاد يجاوز المرجعية الدينية التي اتخذها لنفسه، والتي لا تنظر إلى الأشياء إلا من خلال زاوية النفس الطاهرة المتصلة بعالم الملكوت، العارضة في سلم المقامات والأحوال، وهي نظرة وجدناها عند كثير ممن سبقوه من أمثال: (الشافعي)، و(وكيع)، وأرباب العلوم الدينية.

ثم أخذ مفهوم التعلّم عند المحدثين أبعادا جديدة، على اعتبار ما تبوأه من مكانة خطيرة، فظهرت العديد من المدارس أبرزها:

أ-المدرسة الشرطية: التي عكفت على رصد الاستجابات المختلفة المصاحبة لمنبهات معينة، وهي نظرية كرسّت النمطية التعليمية<sup>2</sup>.

ب-المدرسة الارتباطية: التي تعتبره تغييراً "يطراً على قوة الارتباط بين المثبرات، والاستجابات والتي تؤدي إلى اكتساب استجابات جديدة"<sup>3</sup>. ولا يكاد يتجاوز تناول العرب المحدثين للتعلم هذه الجوانب، إن لم يقف عندها وقوف المقاد، ولذلك تضيق هذه الفسحة عن عرض آرائهم. إنَّ التعلم - في ضوء ما سبق- ظاهرة نفسية سلوكية تتمظهر في سلوكيات الأفراد التي تنحو منحى تصاعدياً في سلم المهارات، هذه السلوكيات لا تعدو كونها حصيلة لتفاعل الفرد مع البيئة، وما بها من مؤثرات طبيعية، وثقافية، واجتماعية فضلاً عن الضغوط المختلفة، التي تقع على الفرد من البالغين المحيطين به.

ولكي تتضح لنا الرؤية أكثر، ونحن نغوصُ في ثنايا هذه الدراسة، ارتأينا أن نميط اللثام عن ثلاثة مصطلحات محورية هي: التعليم، والتعليمية، والبلاغة.

### 1- ما التعليم؟

يقصد بالتعليم «التصميم المميز للخبرة (الخبرات) التي تساعد المتعلم على إنجاز التغيير المرغوب فيه في الأداء، ويعنى بإدارة التعلم التي يقودها عضو هيئة التدريس داخل المؤسسة التعليمية أو خارجها، بهدف مساعدة المتعلم على تحقيق الأهداف المسطرة»<sup>4</sup>.

### 2- ما التَّعليمية؟

يقصد بالتَّعليمية كلُّ ما له علاقةٌ بالتَّعليم، أو هي الدراسة العلمية لطرائق التدريس وتقنياته، هدفها الأساس هو البحث في المسائل التي يطرحها تعليم مختلف المواد، ورغم الصُّعوبات، والتداخل الذي يكتنف هذا المصطلح، إلَّا أنَّ هذا لم يمنع الباحثين في هذا المجال التَّمييز بين نوعين أساسيين لها<sup>5</sup> هما: أ- التعليمية العامة: تهتم بكل ما هو مشترك في تدريس جميع المواد.

ب- التعليمية الخاصة: تهتم بكل ما يخص تدريس مادة من مواد الدراسة، من حيث الطرائق، والوسائل، والأساليب الخاصة بها.

### 3- ما البلاغة؟

قال (ابن الأثير) في حدّها: "أما البلاغة فإن أصلها في وضع اللغة من الوصول والانتهاء يقال: بلغت المكان إذا انتهيت إليه، ومبلغ الشيء منتهاه، وسمي الكلام بليغا من ذلك أي أنه قد بلغ الأوصاف اللفظية والمعنوية"<sup>6</sup>. ولم يزل الناس منذ الجاهلية إلى يومنا هذا- يسألون ما البلاغة؟، ولم تزل الإجابات تدور حول معان بذاتها، كالإيجاز واختيار الكلام، والقصد في الحجة، وتقليل اللفظ في غير عجز، وإصابة المعنى، وغيرها من التعاريف. وقد ذكر (الجاحظ) أقوال كثير من الفضلاء، والشعراء، والحكماء من العرب وغيرهم، في تعريف البلاغة، لعل أجمعها تعريف (ابن المقفع) الذي يقول فيه: «البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة؛ فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعرا، و منها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل، فعامّة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة، فأما الخطب بين السماطين و في إصلاح ذات البين فالإكثار في غير خطل، والإطالة في غير إملال، وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك»<sup>7</sup>.

وهو تعريف لا يصح أن نقرأه إلا في ضوء المرجعيات الثقافية، والدينية، والحضارية التي يختزلها فكر (ابن المقفع)، ولعل في هذا بلغة للمقتصد وبداية للمجتهد.

## 4- أسباب اهتمام العرب بتعليم البلاغة:

تضافرت جملة من الأسباب المباشرة، وغير المباشرة دفعت العرب عامة، والمعتزلة خاصة، إلى البحث في البلاغة، وطرائق تعليمها، وإن كان الرأي الغالب قبل ظهور المعتزلة، اعتماد البلغاء، والخطباء على ما أوتوا من مقدرات فطرية، وصفات جبلية، ولعل مكابرة (واصل بن عطاء) ومجاهدته نفسه، وسعيه إلى تخليص لسانه مما شأنه، أكبر دليل صار يلجأ إليه، لإظهار أن البلاغة قد تكتسب كما تكتسب اللغة، وسائر الأخلاق والفضائل، على اعتبار أن النفس البشرية ما خلقت إلا مبرأة من كل عيب، وأن علمها الأول اللدني علم كامل، وبالتعلم يعاود هذا العلم النفس، ويرجع إليها.

وستشير إلى جهود (واصل) في الجزء المخصص له مكتفين في هذا المقام بعرض الأسباب التي حتمت على العرب، الاهتمام بالدرس البلاغي، والتي منها:

أ- فساد الذوق وانحراف الملكات وتضاؤل الطبع في نفوس العرب<sup>8</sup>، خاصة بعد اتساع رقعة الدولة، وامتداد الفتوحات الإسلامية، وما صاحبها من اختلاط، وامتزاج عرقي غير مسبوق كان كافيا لدق ناقوس الخطر، وتحفيز هم بعض العلماء الذين بادروا إلى وضع قواعد، وضوابط، تعصم المتكلم من اللحن من جهة النطق، ومن جهة التركيب، والتعبير، وإن فطن المعتزلة إلى لحن آخر اعتبروه أشد خطرا، ألا وهو لحن الأمة العقدي، ولذلك دارت جل مباحثهم البلاغية حول توطين النفوس على عقيدة لا تجسيم فيها، ولا تشبيه فبدلوا في سبيل ذلك جهدا عقليا لا نكاد نجد له نظيرا في تاريخنا القديم والحديث.

ب-الرغبة الجامحة في معرفة سر إعجاز النص القرآني، وكشف أسباب عجز العرب عن مجاراته و هم من هم لسناء، وفطنة، ودراية بفنون القول ودقائقه، ثم استحالت هذه الرغبة بحثا عن صفات الكلام الرفيع، ودفعا بالناشئة إلى تعلمه، لاسيما وقد بدأ بعض المشككين من غير العرب، يطرحون أسئلة جعلت المعتزلة يستنفرون قرائهم بحثا عن أجوبة مفحمة، ومع شيوع علم الكلام، واختصاصهم به، زادت حاجتهم، وحاجة أتباعهم إلى تعلم البلاغة، والتعمق في أسرارها، حتى صارت علمهم الأثير، ولا يخفى كبير الأثر الذي خلفته هذه العلاقة في نفوس من جاء بعدهم من المتكلمين والفلاسفة، كـ(قدامة)، و(ابن وهب)، و(ابن خلدون)، وغيرهم.

ج- رواج سوق المناظرة والجدل، وعلم الكلام، في صدر الدولة العباسية على وجه الخصوص، بين أئمة النحو، واللغة، وعلم الكلام الذين راحوا ينتصرون للأساليب العربية، ويعظمون شأن لغة الأعراب، ويتخذونها مثلا ليقاس عليه، ويقتدى به، وكثرت بذلك القواعد، والاستنباطات في اللغة والنحو، والبلاغة، وقد نشأت مع أطوارها حركة أخرى سايرتها تمثلت في كثرة التأليف، واتساع المعارف.

د- وقبل كل هذا وذلك، ما فطر عليه العرب من حبّ للبلاغة، وإكبار لأربابها؛ فقد زاداها القرآن رفعة بأن جعلها طريقا موصلا إلى معرفة الله، إذ هي أكد وجوه إعجاز كتابه.

وقد تمخضت هذه الأسباب عن أهداف ثلاثة، رسخت مبدأ تعليم البلاغة عند العرب هي:

**1-الهدف الديني:** وقد تمحور حول القرآن الكريم، في محاولة لتفسيره، وإظهار وجوه إعجازه التي جزموا بتعددها، وقد اتجهوا إلى البلاغة باحثين في فنونها، موضحين أقسامها لتكون لهم عوناً، حتى عدّها (أبو هلال العسكري): «أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله- جل ثناؤه»<sup>9</sup> وهي عنده كما عند (عمرو بن عبيد المعتزلي) وسيلة لمعرفة إعجاز كتاب الله، الناطق بالحق الهادي إلى سبيل الرشد، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة التي رفعت أعلام الحق وأقامت منار الدين وأزالت شبهة الكفر ببراينها وهتكت حجب الشك بيقينها»<sup>10</sup>.

**2-الغرض النقدي:** والموازنة بين أشكال الإبداع من خطب، وقصائد، ورسائل، ولأنّ البلاغة تتمي في الناقد موهبة التمييز بين الجيد والرديء، وتمدّه بما يعينه على الحكم كانت الحاجة أشدّ إلى التّظهير، والتّقييد، والتّعلم، والتّعليم، وكتاب البيان والتبيين خير مثال لاجتماع هذه الغايات التي وقع تحت طائلتها التفكير المعتزلي \_على وجه الخصوص\_ ردحا من الزمن، وإن كنا نتساءل بإلحاح عن جهود غير المعتزلة في إنضاج تعليم البلاغة العربية، وإذكاء البحث فيها.

**3-الهدف التعليمي:** وهو صورة من صور انبهار العرب بالقرآن، وبلاغته، ودفاع المعتزلة عن الإسلام، وذنبهم عن حماه، ظهرت في حرصهم على تعليم الناشئة فنون البلاغة، وتلقينهم قواعدها التي هداهم إليها بحثهم، وتفكيرهم، خاصة بعد أن تفسّى فيهم اللّحن، وكثرت حاجتهم إلى علم عاصم من الزلل، يحترز به عن الخطأ من جهة التعبير عن المعاني.

ويضاف إلى ذلك حاجة كثير من المسلمين إلى تعلّم اللّغة العربية، وبلاغتها، على اعتبار أنها صارت تشكل وسيلة تعلّم المعلوم من الدين بالضرورة، وقد

قرّر الأصوليون أنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فكان عليهم إذن\_ أن يتقنوا العربية بمعرفة ألفاظها، وتراكيبها، ومعانيها، وأساليبها، والبلاغة إحدى سبل هذه الغاية التي لا محيص عنها.

### 5- الفئات المؤثرة في إنضاج تعليم البلاغة:

وكان من أبرزها على الإطلاق:

#### أ- اللغويون والنحاة:

ويظهر أثرهم البين في إمداد البلاغة العربية بروافد أثرتها دراساتهم حول اللغة، وبحوثهم في أسباب ثقل بعض الألفاظ، وعوامل تنافرها أو تلاؤمها، وقد أفاد كل ذلك علم البلاغة، الذي بدأت تتضح ملامحه على أيدي أمثال (الخليل بن أحمد)، و(سيبويه)، و(خلف الأحمر)، و(قطرب)، و(أبو عبيدة)، و(الأصمعي)، و(أبو حاتم السجستاني)، و(المبرد)، فكانت العلوم اللغوية البيت الذي نشأ البلاغة، وقوى عودها، وطرح أسئلتها الأولى، وأجاب عنها؛ فضلا عن ممارستهم الرواية التي عدوها عمود اللغة، راحوا يتناولون جوانب أسلوبية؛ كالقديم والتأخير والذكر، والحذف، والفصل، والوصل، والمجاز، والمدح بما يشبه الذم، وغيرها، من الأبواب التي تجاذبتها الدراسات النقدية، واللغوية، والبلاغية زما غير يسير<sup>11</sup>.

#### ب- المفسرون و الأصوليون:

ارتبط دور المفسرين، والأصوليين في تحديد ملامح البلاغة العربية بدور القرآن الكريم والحديث الشريف، اللذين شكّلا مصدرا من مصادر المعارف اللغوية، والبلاغية، والدينية، وهي معارف راحت تتداخل وتتساقق؛ فالقرآن ما نزل إلا ليبلغ للعالمين معاني ومعارف تحتاج إلى من يفقّها، ويفتح ما أغلق منها، وتبيان هذه الأسرار، والدواخل لا يكون إلا بلامسة مكامن



الرّوعة والجمال، والتفرد من طريق ما يكفله علم البلاغة، من تفسيرات، وتأويلات، ولذلك حفلت مقدّمات كتب التّفسير بالحديث عن البلاغة وفنونها، «وعلى هذا النحو تسلل التّفكير الأصولي إلى رحاب البلاغة، وقد كان البلاغيون، يتعمدون الربط بين العلمين، ولا أدل على ذلك (السكّافي) الذي كان يرى أن أصول الفقه أحد العلوم التي توزّعت في المباحث البلاغيّة، كما أن البهاء السبكي يصرّح في مواضع متعدّدة بأنّه مزج بين أصول الفقه والبلاغة لقوّة العلاقة بينهما»<sup>12</sup>.

### ج\_ الشعراء والكتّاب:

عني الشعراء منذ الجاهليّة بفنّ القول، فمارس بعضهم سلطة نقدية ذاتية، حتّى لقبوا (عبيد الشعر)<sup>13</sup>، كما دلّت النقدات الكثيرة التي وصلتنا على ذوق، ومعرفة عميقة بجيّد الشعر، ورديئه، ومن الشعراء الذين عنوا عناية خاصّة بالبلاغة، (عبد الله بن المعتز) الذي كان له فضل فتح باب التأليف البلاغيّ، و(الشريف الرّضي)، و(ابن رشيق)، و(ابن سنان)، و(ابن أبي الأصعب المصريّ)، وأبعد الكتّاب أثرا في شيوع منهج تعليميّ شائق (ابن المقفع)، و(الجاحظ) و(أبو هلال العسكري)، و(ضياء الدّين بن الأثير)، و(شهاب الدّين محمود الحلبيّ) دون أن نغمت (قدامة)، و(ابن وهب)، وأسئلتهما الاستفزازية حقّهما ووقعهما المغاير على سيرورة الدّراسات البلاغيّة تعليما وتعلّما<sup>14</sup>.

إلا أن جهود (الجاحظ) الذي نجده في كل مكان تسترعينا حقّا، ونحن نذكر كتابيه البيان والتبيين، والحيوان، وما فيهما من براعة، وإشراق، وحسن تمثّل للبلاغة بشقيها العلمي والأدبي.

#### د- الفلافة والمكلمون:

أمن المكلمون بأن الصناعة الكلامية هي الطريق الأمثل للبحث في القرآن، والتدليل على إعجازه، واستتباط عقائده، والدفاع عنه، وقد ظهر أثرهم في الدراسات اللغوية، والبلاغية مبكرا لأسباب منها:

- قضية إعجاز القرآن: وهي إحدى أهم القضايا التي تناولها أوائل المكلمين، والفلافة العرب، كـ(الكندي) الذي بادر بسؤال سجله تاريخ الدراسات البلاغية، حول اختلاف أشكال تعبير العرب عن المعنى الواحد<sup>15</sup>.

- مكان البلاغة من العلوم العربية، وحاجة علماء الكلام إليها في شرح آرائهم، وبسط عقائدهم والدفاع عنها.

- إيمان المعزلة - وهم أبرز المكلمين- بأن الشعر العربي هو رافد العربية الرئيس، ومصدرها الأوحد، ووعاؤها الذي صبّت فيه كل المعارف، ومن جملة المكلمين الذين أرسوا دعائم البلاغة، (واصل بن عطاء)، و(عمرو بن عبيد)، و(سهل بن هارون)، و(بشر بن المعتمر)، و(الجاحظ)، و(الزمخشري)، وقد طبع هؤلاء، وغيرهم البلاغة العربية بطابع عقلي بحت، قوامه الاستدلال ودقة التقسيم والتحديد<sup>16</sup>.

ومن الفلافة الذين أثاروا الدرس البلاغي، وأجلوه عن بعض ما كان يشوبه، (الكندي)، و(قدامة بن جعفر)، و(ابن وهب الكاتب)، و(الفارابي)، و(ابن سينا)، و(ابن الهيثم)، و(ابن رشيق)، وإن كانوا جميعا يغرفون من بحر (أرسطو طاليس).

وقد ازداد تأثير الفلافة في البلاغة حدة، عند المتأخرين من أمثال (السكاكي) الذي جعل المنطق مهادا للبلاغة، وعلّل ذلك بما يفرضه «تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي ومعرفة خواصها، ممّا يلزم صاحب علم المعاني والبيان»<sup>17</sup>، وإن كان (أبو هلال) لا يجد بدا من التفرقة بين مدرستين -عند

تعاطي البلاغة- هما: المدرسة الأدبية، والمدرسة الكلامية، حين يقول في مقدمة كتابه: «وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين، وإنما قصدت فيه مقصد صنّاع الكلام من الشعراء و الكتاب»<sup>18</sup>.

## 6- مدارس تعليم البلاغة: ونجملها في:

### (أ) المدرسة الأدبية:

وهي التي تجسّد الشكل الأدبي للبلاغة العربيّة، ومن خصائصها، قلة اكرائتها بالتحديد والتّقسيم، وعزوفها عن استعمال المصطلحات، والمقاييس الفنيّة في الحكم على الأدب، وبالمقابل يسرف أصحابها في الاستشهاد، وتحكيم الذوق الفنيّ، أكثر من تحكيم المنطق، وسلامة النظر، ومن ميزات هذه المدرسة أن رجالها «يذكرون القاعدة في سطر أو سطرين، ثم يوجّهون جلّ همهم إلى تحليل النصّ الشعريّ أو النثريّ أو الآية القرآنيّة، ولم تكن أمثلتهم مقصورة على الجملة أو الجملتين، وإنما تتعدّى ذلك إلى القطعة النثرية أو القصيدة الشعريّة أو السورة القرآنيّة، ومن أعلام هذه المدرسة (ابن سنان الخفاجي) و(أسامة بن منقذ) و(ابن الأثير) و(ابن أبي الأصعب المصري) و(الطوفي البغدادي)، فقد كان هدفهم دراسة بلاغة القرآن ومعرفة مظاهر فصاحته وبلاغته والقدرة على الكلام الجميل وإنشائه<sup>19</sup>.

ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء (ابن المعتز) في كتابه "البديع"، و (أبا هلال) في "الصناعتين"، و(الجرجاني) في "أسرار البلاغة"، ويمكن عد (أمين الخولي) امتدادا لها في العصر الحديث، من خلال كتابه "فن القول".

### (ب) المدرسة الكلامية:

وتتميز بالميل الشديد إلى الجدل، والتحديد اللفظي، والتقسيم العقلي، واستعمال أساليب المتكلمين في استقصاء الموضوعات، وحصرها، وتظهر ملامحها في

المؤلفات البلاغية التي تعنى بمسائل الفلسفة، والطبيعة الإلهية، والخلقية؛ كالكلام عن الأجسام، والألوان، والطعموم، والوهم، والخيال، والحس المشترك، وللمعزلة قسط وافر في ما ذكرنا، خاصة (النظام) منهم<sup>20</sup>، ويذهب بعض الدارسين<sup>21</sup>، إلى أن هذه المدرسة فرضتها طبيعة المجتمع الإسلامي في صورته الجديدة، الممتزجة الأجناس، والتقافات، ولذلك تجد جلّ رجالها من غير العرب، أمثال (الزمخشري)، و(الرازي)، و(المطرزي)، و(السكاكي)، و(التفتازاني)، ولعل أبلغ الكتب تجسيدا لخصائص هذه المدرسة كتاب "نقد الشعر" لـ(قدامة بن جعفر)، و"البرهان" لـ(ابن وهب الكاتب)، و"دلائل الإعجاز" لـ(الجرجاني)، و"نهاية الإيجاز" لـ(لرّازي) و"مفتاح العلوم" لـ(السكاكي).

على أننا نلحظ اتجاها يكاد يكون ثالثا يقف على حدود المدرستين السابقتين، يمزج فيه أصحابه بين تحكيم الذوق، والجمال من جهة، واستخدام المصطلحات، والتقسيمات من جهة أخرى، وهو اتجاه لا نجد أحسن من (الجرجاني) ممثلا له، بكتابه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"؛ فهو في هذا الأخير بلاغيّ نواقة، يتفنّن - على طريقة الأدباء- في الكلام عن أساليب البيان، ويقارن بينها ويذكر لها من الشواهد الكثيرة المشفوعة بالتحليل الجماليّ ما يدفعك إلى اكتشاف الجرجاني الأديب، وهو في الأوّل متكلم متصرف في فنون الكلام، يخوض في مسائل الإعجاز، ويسهب في التفرّيع والتقسيم.

## 7- مرتكزات تعليم البلاغة عند المعتزلة:

## أ- التّعليم بالقُدوة (واصل بن عطاء):

يعدّ المسعودي<sup>22</sup>، (واصل بن عطاء) شيخ المعتزلة الأوّل؛ قديمها وحديثها، وهو من أعظم شخصيات الإسلام، وأعجبها، وأعظمها شأواً في تاريخ بلغاء العرب، وإن كانت حياته لدى المتأخرين منهم تكاد تكون غامضة، وسواء أكان قديراً أم شيعياً، تعلم على يدي معبد الجهني، أم (محمد بن الحنفية)، فهو في النهاية نموذج المعتزلة الأوحّد، الذي جمع خصالاً جعلت صديقه (عمرو بن عبيد) يقول لأخته وقد زفّها إليه: «زوّجتك برجل ما يصحّ إلا أن يكون خليفة»، وقد فضّله في الخطابة على (الحسن البصري)، و(ابن سيرين)، وكان يشبّهه بالملائكة والأنبياء<sup>23</sup>.

ويقال إنّه عابه أولاً بطول العنق، ثم ندم بعد ذلك وقال: «أشهد أن الفراسة باطلة إلا أن ينظر رجل بنور الله»، وسئلت أخت عمرو -وكانت زوجته-: "أيهما أفضل زوجك أم أخوك؟" فقالت: "بينهما كما بين السّماء والأرض"، وقد وصفت زوجها واصلاً بأنه كان "إذا جنّه الليل صفّ قدميه يصلّي، ولوح ودواة موضوعان، فإذا مرّت به آية فيها حجّة على مخالف جلس فكتبها، ثم عاد إلى صلاته".

فلا شكّ إذن في ديانة الرجل، وصدقه في الدفاع عن الإسلام دفاعاً واعياً يحتاج فيه إلى سلامة طويّة، وحسن نيّة، وإلى علم كثير، وبيان وافر، لولا أن الذهبي ناقد الرجال الشهير ما يفتأ يذكرنا - بهذا الترتيب - بصفات واصل فيقول: «واصل بن عطاء البصريّ الغزالي، المتكلمّ البليغ المتشدّق، الذي كان يلثغ بالرّاء، قيل عنه هجر الرّاء وتجنّبها في خطابه، سمع من الحسن البصريّ وغيره»<sup>24</sup>.

فهو عنده أعظم شهرة بأوصافه تلك على الترتيب، اسما، ومسكنا ثم لقبا، وهو بعد ذلك متكلم بليغ متشوق، وشهرته التي بها ذاع صيته، هي قدرته على تجنب الرأء، وتطهير لسانه من عيب كاد يحول دون تمام بيانه، والحق أن هذا العمل وحده كفيل بأن يجعل (واصلا) جديرا بإعجاب أعدائه قبل أتباعه، وتلامذته، ولذلك لم يزل عند أصحابه من المعتزلة، وغيره مقدما ومهيبا، يقتدون به، ويدللون بمجاهدته لسانه، ومكابرته طبعه على أن البلاغة علم يمكن تعلمه بالطلب، والنظر، والدرية، والمران، وتتبع القواعد التي يهتدي إليها العقل.

وقد وجدنا بعد ذلك من يشير إلى أن البلاغة ليست عطية توهب، بل هي كذلك جهد يبذل، وهدف يبلغ، وحق ينال، يقول الجاحظ: «...ولما علم واصل بن عطاء أنه ألتغ فاحش اللثغ، وأن مخرج ذلك منه شنيع، وأنه إذ كان داعية مقالة، ورئيس نحلة، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل، وزعماء الملل، وأنه لا بدّ من مقارعة الأبطال، ومن الخطب الطوال[...]. رام (أبو حذيفة) إسقاط الرأء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقته، فلم يزل يحتال لذلك، ويغالبه، ويناضله، ويساجله، ويتأنّى لستره، والراحة من هجنته حتى انتظم له ما حاول، واتسق له ما أمل، ولولا استفاضة هذا الخبر، وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلا[...]. لما استجزنا الإقرار به، والتأكيد له، ولست أعني خطبه المحفوظة، ورسائله المخددة لأن ذلك يحتمل الصنعة، وإنما عنيت محاجة الخصوم، ومناقلة الأكفاء ومفاوضة الإخوان»<sup>25</sup>، على الرغم من أن الجاحظ نفسه يقرُّ بأن الرأء من أكثر الحروف دوراناً في اللغة العربية حين يورد قول أبي محمد اليزيدي:

وخلة اللفظ في الباءات إن فقدت كخلة اللفظ للآمات والألف  
 وخصلة الرأء فيها غير خافية فاعرف مواقعها في القول والصحف

ولعلّ ذلك ما دفع (بشارا بن برد) إلى مدحه بعد أن سعى بعض الخطباء إلى الوقية به بين يدي (عبد الله بن عمر بن عبد العزيز) بأن حبروا خطبا ودفعوا به لأن يرتجل فقال بشار:

أبا حذيفة قد أوتيت معجبة      من خطبة بدهت من غير تقدير  
وإن قولاً يروق الخالدين معا      لمسكت مخرس عن كل تحبير  
وقال أيضا<sup>26</sup>:

تكلفوا القول والأقوام قد حفلوا      وحرّوا خطبا ناهيك من خطب  
فقام مرتجلا تغلي بداهته      كمرجل القين لما حُفّ باللّهب  
وجانب الرء لم يشعر به أحد      قبل التّصفّح والإغراق في الطّلب  
وقد ذاق بشار نفسه من هذا المرجل، واكتوى ببعض اللّهب الذي حفّ به، بعد أن قال بالرجعة وأعلن ثنويته، وثبت لـ(واصل) ما يشهد بإلحاده، وهو قوله:

الأرض مظلمة والنّار مشرقة      والنّار معبودة مذ كانت النار<sup>27</sup>  
فوقف في أتباعه خطيبا وقال: "أما لهذا الأعمى الملحد، أما لهذا المشنف المكنى بأبي معاذ من يقتله، أما والله لولا أن الغيلة من سجايا الغالية لدست إليه من يبعج بطنه، في جوف منزله... ثم لا يتولى ذلك إلا عقيلي أو سدوسي." وقد تجنب كلمات تخلصا من الرء في غير تكلف ظاهر منها اسمه (بشار بن برد)، ووصفه (المشنف)، وكان بشار ينبذ بـ(المرعث)، وقال (الغالية)، ولم يقل (الرافضة)، وقال: (يبعج)، ولم يقل (بيقر) كل ذلك تخلصا من الرء.

فقد كان لوصل- بما سبق من خصال- أكبر الأثر في إرساء قواعد الاعتزال، وبقوة شكيمته وصلابة عارضته، وحضور بديهته، وشخصيته

الفنانة، فقد كان أديبا ممتازا، وخطيبا من الطراز الأول، وصفه ياقوت بأنه: «كان متكلمبا بليغا، متفننا خطيبا...»<sup>28</sup>.

وهو حسب (أحمد أمين) أوسع المعتزلة عقلا، وأغزرهم علما، و«كان له الفضل الأكبر في تأسيس الاعتزال، على أسس علمية ووضع الخطط في نشره بإرسال الدعاة في الآفاق... وكان أقدر على الجدل، والمناظرة، سريع البديهة في استحضر آيات القرآن التي تؤيد مذهبه "ولهذا" كان أكثر رجال المعتزلة، تلاميذ لوصل، أو تلاميذ لتلاميذه»<sup>29</sup>، وهؤلاء هم أصحاب الفضل الأول في وضع الأسس الأولى لعلم الكلام، وعلم البلاغة، وعلم الجدل، والمناظرة، وقد نقل الجاحظ: «أن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين و على رأسهم المعتزلة طبعا كانوا فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البليغاء، وهم تخيروا الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من الكلام العربي تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف، وقدوة لكل تابع»<sup>30</sup>.

#### ب- الغاية المثلى وحسن التوسل (بشر بن المعتزم):

تعتبر صحيفة بشر، إحدى الآثار النابذة الذكر، في توجيه الناشئة، وتعليمهم أساليب الكتابة، والخطابة المحببة، وترشدهم إلى سبل تعلمها من أقصر وجه، وبأيسر مؤنة، وقد تناقلت كتب النقد و الأدب و البلاغة، شذرا من هذه الصحيفة، ويكاد يكون (الجاحظ) أول من أوردتها كاملة<sup>31</sup>، في حين اختلط كثير منها مع آراء (أبي هلال) "الصناعتين"، واكتفى صاحب العمدة بإيراد بعض فقراتها.

والصحيفة وإن تناولت موضوع الكتابة، إلا أن فيها إشارات نفيسة إلى بعض طرق المعتزلة في تعليم الناشئة البلاغة، وفنون صياغة الأساليب واستحضار



الحجج، ولذلك وجدنا القدماء يكبرون من شأنها، ويعتبرونها إحدى مراجع تعلم فنون القول وحوك الكلام.

وها نحن نكتفي بالإشارة إلى ما يخدم موضوع مقالنا، ومنه:

**1\_ التحذير من القصد إلى التوعر الذي يسلم إلى التعقيد، ويستهلك المعاني، ويشين الألفاظ، ويوصي الناشئة بتوخي السهولة في التفكير، والتعبير، والبعد عن التكلف، والتنبيه إلى الملائمة بين الألفاظ والمعاني، ويقول بشر: «وياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، وهو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك، ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما فإن حق المعنى الشريف، اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما»<sup>32</sup>.**

وقد رتب اللفظ والمعنى في ثلاث درجات، وجعل لكل درجة من المعاني ما يناسبها من الألفاظ، وجعل لكل طبقة من الناس ما يلائمها من الكلام، وهو في هذا يشير إلى ما اصطلح عليه في البلاغة، بـ"مقتضى الحال".

**2\_ ثم ينتقل إلى الحديث عن أساس العلاقة بين المعاني، والألفاظ فيحصرها في أربع درجات هي:**

أ\_ الصحة: وتشمل الصحة المنطقية والعقلية والعلمية والعرفية.

ب\_ النفعية: ومدارها الفائدة التي تعود على المتلقي.

ج\_ التناسب بين المعاني وموضوعاتها: أو ما يعرف بالتناسب الموضوعي.

د\_ مراعاة حال المخاطب (المتلقي)، ومداركه، ومستواه الفكري، ومدى استعدادة للتلقي.

وبشر هنا لا يكفني بالاهتمام بالعلاقات الداخلية للكلام، بل يتعداها إلى الموضوع، والمتلقي، وقد أشار إلى ذلك أكثر من مرة في صحيفته، يقول مثلا<sup>33</sup>: «ينبغي للمتكم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات».

بقي أن نشير إلى أن كثيرا من آراء (بشر) مبنوثة في كتابي "البيان والتبيين" و"الصناعتين"، وهي آراء شكلت النواة الأولى التي فجرت مباحث النقد، وعلاقته بالعلوم الأخرى كعلم النفس، وهي مباحث من صميم الدرس النقدي الحديث، وهو أول من فتح الباب على مصراعيه أمام النقاد بعده، وهو الذي وضع أساس التعريف الشهير: «البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال»، وهو أيضا أول من تطرق لقضية الصدق، والكذب<sup>34</sup>.

فبالصحيفة إذن أهمية بالغة بما نظرت له من أصول بلاغية، وأدبية، ونقدية -على الرغم من ضآلة حجمها- تتمثل أساسا في الموازنة بين حسن استعمال اللغة باعتبارها وسيلة، وإدراك الحاجة، وبلوغ المنية، بتحقيق أرقى صور التعبير المطبوع الخاضع لسطاني العقل، والعاطفة.

ج- موسوعية الثقافة، وسحر الاسترسال (البيان والتبيين) للجاحظ:

يستهل (الجاحظ) كتابه بالدعاء فيقول: «اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن، ونعوذ بك من السلاطة والهذر كما نعوذ بك من العي والحصر».

ثم يبحر بك في مجاهل القول مسترسلا دون خطة واضحة، ولا سبيل بيّن، متتبعا خيطا رفيعا نظمت فيه معارفه نظما عجيبا أذا تجعلك لا تتأخر في الحكم لصاحبها بالإمامة في البيان والسبق في الخطابة والكتابة.

فالكتاب \_كما ترى\_ على غير عادة صاحبه خالٍ من المقدمة، وقد طلب الدارسون لذلك عللا ليس المقام مقامها، إلا أنه بيّن السبب واضح الغاية، يكون الجاحظ قد قصد إلى تأليفه، لغرضين هما<sup>35</sup>:

1\_ الرد على الشعوبية، ومن هنا نحوهم من منكري بلاغة العرب، ودحض مطاعنهم.

2\_ استحضار النماذج الرائعة التي تصلح لان تكون قدوة، ومثلا يحتذيه ناشئة الكتاب، والبلغاء و(الجاحظ) في هذا معلّم بارع ينزع منزعمهم في حسن الاختيار، والتحليل، والاستطراد.

وهو من هذا الوجه \_الثاني\_ حاجة أملتها ظروف العصر، ومطلب يعبر بصدق عن ولوع أهله بالخطابة، وأساليبها، كما يدل على اهتمام الجاحظ \_باعتباره رئيس فرقة\_ بتعليم أتباعه فن القول وأساليب المجادلة، وطرق الاحتجاج التي هي وسائل تمكين هذا الدين في قلوب الناس، عربهم وعجمهم، سنتهم، وشيعتهم.

وقد جعل الجزء الأول كله للحديث عن البيان وعيوبه، والبلاغة، وحدودها، ومذاهبها، ممهدا للرد على أغاليط الشعوبيين، ودحض شبههم<sup>36</sup>، وعلى الرغم من غياب المنهج العلمي المنظم، وتناثر المعلومات، وتباعد المباحث إلا أن الكتاب يبقى أكبر الموسوعات العربية التي عنيت باللغة العربية وآدابها فهو مصدر من مصادر الدرس البلاغي، وإليه يرجع في درس الفصاحة و البيان، والبلاغة وهو أيضا من مصادر الدرس اللغوي، وعليه يعتمد في التاريخ للغة

العربية، وتطور مفرداتها، وفروق دلالاتها، والتعرف على لهجات القبائل، وخصائصها، والحروف الأكثر دورانا، والألفاظ الأكثر توافقا<sup>37</sup>. ويكرّس (الجاحظ) موسوعيّة ثقافته في خدمة نظريته التعليميّة، حين يتعدى آراء سابقه\_بشر مثلا\_ فيجعل مدار الخطابة على ثلاثة محاور هي: النص، والمبدع، والمتلقي.

فتناول كل ما تعلق بالنص من الألفاظ، وما يلزم المتكلم من حسن مراعاة ما بينها من انسجام، والبعد عن التكلف والغرابة إلا ما يسمح به لمن كانت تلك عادته، كالبدوي، والعربي، أو ما اصطلى عليه بمراعاة الحيز المكاني. وهو مع المبدع واسع الأفق، حاد الرؤيا؛ فأحصى في القسم الأول ما يستقبح في الخطب من العيوب الخلقية، والعيوب العارضة، وتلك المتعلقة بالأسلوب<sup>38</sup>.

وتحدث في القسم الثاني عما يستحسن في الخطيب، من جهاة الصوت وسعة الفم، كما أشار إلى عادات العرب في الخطابة، وميلهم إلى الإشارة باليد والاتكاء على العصا، والمخاصر، والقسي والسيوف، ثم مال إلى الحديث عن حسن المظهر ودوره في قبول كلام الخطيب<sup>39</sup>. ولم يفت الجاحظ\_وهو الملتزم بتعاليم أستاذه بشر\_ إيحاء الخطباء بمراعاة أحوال المستمعين وتقديرها، ومراعاة المقام، إلا أن العسير حقا هو تتبع هذه الإشارات التعليمية المبيوثة التي لا رابط بينها، وما يحتاجه هذا التتبع من صبر وجلد.

#### د\_المعلم المعتزلي الذواقَة(الزمخشري):

تظهر خصوصية تفسير (الزمخشري) من خلال عنايته بالنص القرآني، واهتمامه بجمال نظمه وسحر بلاغته، وأسرار إعجازه، وهو\_بعد\_ أحد

مراجع المعتزلة، التي تظهر جانبيين هامين هما لفكرهم كالجناحين للطائر: أحدهما تعزيز أصول الاعتزال الخمسة، وآخرهما، مخالفة أهل السنة في تحليل النص القرآني، وتوجيه ألفاظه، أي عدم الالتزام بظاهر المعنى في اللفظ أو العبارة، ويمكن إيجاز أركان تعليمية البلاغة عند (الزمخشري) فيما يلي:

أ\_الاهتمام باللفظ، ومكوناته (الأصوات والحروف)، وما يتبع ذلك من فروق في الدلالة مع الحكم لما اختاره القرآن بالدقة، والفصاحة، والإصابة، كتفرقته بين "مرضع"، و"مرضعة" في قوله تعالى: ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾<sup>40</sup>، حيث يقول: «المرضعة هي التي في حال الإرضاع، ملقمة ثديها الصبي، والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به، فليل مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به \_وقد ألقمت الرضيع ثديها\_ نزعته عن فيه، لما يلحقها من الدهشة»<sup>41</sup>.

ومن الأمثلة التي أكد بها العلاقة بين المبنى، والمعنى حديثه عن التعريف والتكثير، في تفسيره قوله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ الذي يظهر (الزمخشري) المنتصر للقاعدة اللغوية القائلة «بأن كل زيادة في المبنى تتبعها زيادة في المعنى».

ب\_اهتمامه ببناء الجملة، وما تخفيه من أسرار بلاغية، وثروة جمالية، فهو معني بكشف هذه الدواخل \_ولعل هذا سبب اختياره عنوان الكتاب (الكشاف)\_ مهتم بما تحويه من دلالات، وقيم تعبيرية، يشي بذلك تناوله لأسلوب الاستفهام، والتكثير، والتعريف، ومواقعهما، وأساليب الأمر والنهي، والقسم، والنداء، وأغراضه البلاغية<sup>42</sup>، ومن أمثلة ذلك مقارنته بين قوله

تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾، وقوله في سورة أخرى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فيقول معللا: «فإن قلت فهلا قدم الظرف "الريب" كما قدم على "الغول" ... قلت لأن القصد في إيلاء الريب حروف النفي، نفي الريب عنه وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب كما كان المشركون يدعون، ولو أتى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد، وهو أن كتابا آخر فيه الريب، لا فيه، كما قصد في قوله (لا فيها غول) تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بان لا تغتال العقول كما تغتالها هي، كأنه قيل: ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب و النقيصة»<sup>43</sup>.

كما اهتم بالتكرار وفائدته، والحذف، وبلاغته، والالتفات مستشهدا بكلام العرب الذي اتخذه أساسا للبلاغة.

**جـ تحسسه الصورة البلاغية**، التي يعتبرها جزءا أساسا من أجزاء الصورة التعبيرية، وما يميز اهتمام (الزمخشري) هو نظرته الكليّة إلى هذه الصورة، وشدة ارتباط المعنى بها، فهي إحدى وسائل الشرح والإفهام، وهي كذلك إحدى طرق ليّ الكلام وتأويله، إلى ما يخدم مذهبه الاعتزالي، تأويلا يشبه في روعته، ودقته، روعة ودقة أستاذه الأول (واصل بن عطاء)، في تخلّصه من الرّاء، ولا أدلّ على ذلك من محاولته صرف قوله تعالى على لسان أم مريم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، وما يروى من حديث أنه "ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا، من مسّ الشيطان إياه إلا مريم وابنها".

فيقول: «الله أعلم بصحّته، فإن صحّ فمعناه كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها، فإنهما معصومين... واستهلاله صارخا من مسه

تخييل وتصوير لطمعه فيه كأنه يمسه ويضرب بيده عليه، ويقول: هذا ممن أغويه ونحو من التخييل قول بن الرومي:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وما حقيقة المس، والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلا، ولو سلط إبليس على الناس ينخسهم لامتلأت الدنيا صراخا، وعياطا مما يبيلونا به من نخسه»<sup>44</sup>.

وهكذا يسلك (الزمخشري)، بحثه عن المعاني الثواني، متذرا بما يحسنه من تعليل لغوي، وما يحويه من دقائق تكاد تختفي حقيقة مذهبه، وإن كان أكثر الفضل يرجع إليه في استجلاء غوامض التشبيه وأقسامه، والاستعارة، وأنواعها، والكناية، وما اتصل بها من تعريض، يقول مثلا في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا...﴾، «شبه الضال عن طريق الإسلام التابع لخطوات الشيطان، والمسلمون يدعونهم إليه فلا يلتفت إليهم...»<sup>45</sup>.

ويستجلي قوله تعالى: ﴿الر. كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾<sup>46</sup>، فيقول: «الظلمات والنور استعارتان للضلال والهدى (بإذن ربهم) بتسهيله وتيسيره، مستعار من الإذن الذي هو تسهيل الحجاب...»<sup>47</sup>.

ومن الآيات التي وقف عندها، موضعا لطف تعبيرها، ودقة مسلكها في تأدية المعنى، مع مجانية التصريح، قوله تعالى: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم. وأنتم لباس لهن﴾<sup>48</sup>. فبين كيف كنى عن الجماع بالرفث مؤكدا على جمال التعبير القرآني، وعفته<sup>49</sup>.

لقد طبق (الزمخشري)، بذكاء، ودهاء قواعد البلاغة النظرية، التي ورثها عن سابقه، محاولا جعلها مدخلا من مداخل الإقناع القائم على مخاطبة

العواطف، والعقول في أن معا، تمهيدا لبث آرائه الاعترالية التي كان يجهر بها في غير موارد، ولا مدهنة.

إلا أن السؤال الذي يفرضه المقام هو: ما الذي أفادته تعليمية البلاغة من اتصالها بالمتكلمين عامة، والمعزلة خاصة؟

لا شك في أن اتصال البلاغة بعلم الكلام، جعلها تتجه اتجاها واضحا نحو البحث عن الحدود والتقسيمات أكثر من اهتمامها بالجوانب الجمالية الفنية، ولذلك أسهم المتكلمون أكثر من غيرهم في إثراء المصطلحات البلاغية، بدءا بمراحل نشوء الدرس البلاغي الأولى، ووصولاً إلى قمة نضجه وغناؤه.

كما أن جل فنون البلاغة ارتبط ظهورها بعلماء الكلام الباحثين في الإعجاز، من أمثال الجاحظ والرماني، والباقلاني، والجرجاني، وغيرهم، وغالبا ما جرم هذا البحث إلى الحديث عن قضايا فلسفية سرعان ما وجدت طريقها إلى الدراسات البلاغية، كحديثهم عن الخبر، والصدق فيه

وبحثهم في أوجه الحسن الفلسفي، والأسباب، والمسببات، والمجاز المرسل، والفاعل الحقيقي والفاعل المجازي، وغيرها من المسائل التي أنتجت الفلسفة الإلهية.

وقد أدى انفصال البلاغة عن النقد \_بتأثير من علم الكلام\_ إلى هيمنة المنهج التقريري في مقابل المنهج التأثري، ومن ثم شهدنا وظيفة جديدة للبلاغة، تمثلت في إنتاج القواعد، والقوانين المتحكمة في العملية الإبداعية، بدل ما كانت تمارسه والنقد، من إظهار ما في النص الأدبي من مواطن الجمال، أو القبح أي أنها انتقلت من الوظيفة البعدية إلى الوظيفة الاستباقية، فصارت مؤثرة أكثر منها متأثرة، كل ذلك بإيعاز من عقل المتكلم الذي يسعى دائما إلى إخضاع ما حوله لقوانينه ونظمه، وإن كنا نؤمن \_من خلال ما تقدم من



نماذج\_ بأن للمعتزلة جهدا مميزا في الاقتراب بالبلاغة العربية\_ المتأبئة على القواعد الرافضة للترويض\_ من دائرة الممكن تعلمه، الواضحة معالمه. فمن الواضح\_ إذن\_ أن المدرسة الكلامية المعتزلية أفادت البلاغة بأن فصلتها عن النقد، وجعلتها تعليمية معيارية، وإن أضرت بها من ناحية أخرى، حين ألزمتها المنهج التقريري بروحه العلمية التعليمية، مما أفقدها بريقها الجمالي الذي دأب عليه كل من عبد القاهر الجرجاني، وجمار الله الزمخشري، وسلاسة الأداء الجاحظي الشمولي، على أن تبعات هذا التحول لا يتحملها\_ حسب رأيي\_ هؤلاء المتقدمون، بقدر ما يتحملها جيل السكاكي، والقزويني، ومن جاء بعدهما من شراح التلخيص؛ فقد عمد (السكاكي) إلى أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز وجردهما من ميزتي التحليل الفني، والتعليل الجمالي، والنفسي للشواهد جريا وراء دقة التقسيم، والتحديد التي لا ننكر أن أصحاب الفضل الأول في تطعيم البلاغة به هم المتكلمون، وعلى رأسهم المعتزلة، ثم سار من جاء بعده على نهجه النفعي، التعليمي المحض إلى أن استحالت البلاغة جملة من القواعد أو المقدمات التلازمية، التي نشحن بها ذهن الطالب قبل قلبه.

كما انجرّ عن مبالغة هؤلاء في الفصل بين البلاغة، والنقد، قصور نظرة البلاغي إلى الإبداع، واكتفاؤه بالنظر في الشاهد الواحد بدل تمثل النص كله، وما يزخر به من علائق داخلية، تتفاعل وتتشابك في سبيل خدمة النص الأدبي.

- هوامش البحث:

<sup>1</sup> التعلّم عند الغزالي: حمّانة البخاري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، د-ت، ص: 42.

- <sup>2</sup> نظريات التعلم وتطبيقاتها التربوية، محمد مصطفى ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983 : ص:25.
- <sup>3</sup> موسوعة علم النفس للتربية والتعليم: بيروت، لبنان، د- ط، 2004-2005، ج8، ص:14.
- (4) ينظر: استراتيجيات التعلم والتعليم والتقويم، كتيب رقم3، جامعة نورة بنت عبد الرحمن، المملكة العربية السعودية، 1435هـ، ص: 13.
- <sup>5</sup> يُنظر: علي تعوينات: التعليمية والبيداغوجيا، الملتقى الوطني الأول حول تعليمية المواد في النظام الجامعي مخبر تطوير الممارسات النفسية والتربية، جامعة الجزائر، أفريل 2010، ص: 6.
- (6) المثل السائر: ابن الأثير، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، دط، 1995، 840/1.
- <sup>7</sup> البيان والتبيين: الجاحظ، تح/محمد عبد السلام هارون، طبعة الخانجي، 76/1.
- (8) ينظر: الكتابة والتفسير، أحمد محمد فارس ، دار الأمان، ص:155.
- <sup>9</sup> الصناعتين : أبو هلال العسكري، طبعة دار الكتب العلمية ، ص:9
- <sup>10</sup> ينظر : مقاييس البلاغة بين و العلماء الأدباء، حامد الصالح خلف الربيعي، سلسلة بحوث اللغة العربية جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ص: 418 وما بعدها.
- <sup>11</sup> كتاب الصناعتين : أبو هلال العسكري، طبعة دار الكتب العلمية، ص.9.
- <sup>12</sup> ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، دط، د-ت، ص404-406.
- <sup>13</sup> مقاييس البلاغة بين والعلماء الأدباء، حامد الصالح خلف الربيعي ،ص: 432 .
- <sup>14</sup> نقصد زهير بن أبي سلمى ومدرسته، التي وصل بها طه حسين إلى حدود العصر الأموي.
- <sup>15</sup> ينظر: نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي (656هـ-)، نبيل خالد رباح أبو علي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1993م، ص: 88 وما بعدها.

- <sup>16</sup> ينظر: البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط2، 1965، ص: 29.
- <sup>17</sup> ينظر: بنية العقل العربي، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت- لبنان، 1987، ص: 101.
- <sup>18</sup> مفتاح العلوم : السكاكي أبو يعقوب، تر: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية - بيروت- لبنان 1987م، ص: 432
- <sup>19</sup> الصناعتين: العسكري، ص: 9.
- <sup>20</sup> المختصر في البلاغة: عبد القادر حسين، دار الشروق، ط: 1، 1982، ص: 15.
- <sup>21</sup> ينظر ضحى الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، دار الكتاب العربي بيروت- لبنان، ط10، ج3، ص: 121.
- <sup>22</sup> ينظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، دار الأندلس- بيروت لبنان، ط: 1984، 06م، ج3، ص: 54.
- <sup>23</sup> عن نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، علي سامي النشار، دار المعارف، ط: 09، 1995، ج1، ص: 386.
- <sup>24</sup> نفسه، ج1، ص: 386.
- <sup>25</sup> البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص: 29، 28.
- <sup>26</sup> نفسه : ج1، ص: 386.
- <sup>27</sup> نفسه : ج1، ص: 30.
- <sup>28</sup> عن نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، علي سامي النشار، ج1، ص: 384.
- <sup>29</sup> فجر الإسلام: أحمد أمين
- <sup>30</sup> البيان والتبيين: الجاحظ، ج1 ص: 106.
- <sup>31</sup> ينظر: نفسه، ج1، ص: 41.
- <sup>32</sup> نفسه: ص: 136.
- <sup>33</sup> نفسه: 139/1، 138.

- 34) ينظر: أدب المعنزلة إلى نهاية القرن 4 هـ، عبد الحكيم بلبع، دار نهضة مصر، ط3، 1979، ص: 180، 181. والبيان العربي: بدوي طبانة، مطبعة الأنجلو مصرية، ط6، ص 67، 77.
- 35) ينظر: محمد زغول سلام، دراسات في الأدب العربي (العصر العباسي)، منشأة المعارف، ص: 445
- 36) ينظر: البلاغة العربية، سيد نوفل، مكتبة النهضة المصرية، 1998 م، ص: 15، 16.
- 37) ينظر: نقد النثر في تراث العرب النقدي، نبيل خالد رباح أبو علي، ص: 65.
- 38) ينظر: البيان والتبيين، 55/1، 133، 1.
- 39) سورة الحج/01.
- 40) الكشف: الزمخشري، طبعة دار المعرفة، بيروت، دت، ج3، ص : 04.
- 41) نفسه: ج485، 2 وج3، 84، 1، 298.
- 42) نفسه : 114، 115.
- 43) نفسه : 426 / 1.
- 44) الأنعام / 71.
- 45) الكشف: 2 / 28، 29.
- 46) ابراهيم / 01.
- 47) الكشف: الزمخشري، 2 / 356.
- 48) البقرة / 187.
- 49) ينظر: الكشف: 1 / 337 ، 338.